



العاصمة مجلة

المجلد الرابع، ٢٠١٢ م

ISSN : 840-2277-9914



قسم العربية، كلية الجامعة
ثروننتبرم - ٦٩٥٠٣٤، كيرالا، الهند

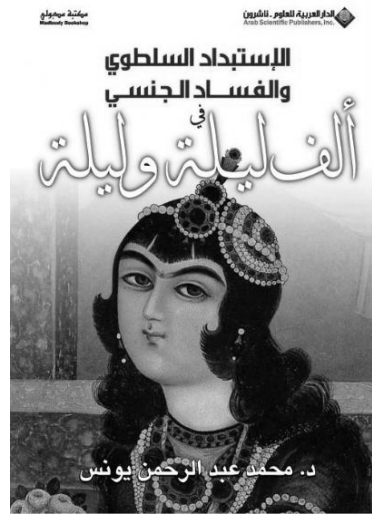
قراءة في الملامح الرئيسية لمدن (ألف ليلة وليلة) العربية والهندية والإسلامية

د/ محمد عبد الرحمن يونس

باحث وروائي وأستاذ جامعي، جامعة جين جي الوطنية، تايوان

تحاول هذه الدراسة أن تتبين بعض الملامح العريضة لمدن ألف ليلة وليلة منطلقاً من بنية نص الليالي نفسه، باعتباره نصاً مفتوحاً على عالم من التخيل السردى والإبداعي، إلا أنها لا تركز على النص باعتباره عملاً تخيلياً فقط، بل تعتبره عملاً يمكن أن يتحقق في كثير من جوانبه في بنية الزمان والمكان، فاعتبار مدن ألف ليلة وليلة مدناً وهمية لن يساعدنا على تبيان العلاقات القائمة سياسياً واجتماعياً بين المدينة وسكانها من جهة، وبين السلطة القائمة فيها، وبين أفراد الشعب من جهة أخرى. فإذا كانت العلاقات التي تتحكم في مدن الليالي علاقات غرابية سحرية لا تتحقق إلا في الحلم والتخيل والذاكرة، ووفقاً لنسق ميثولوجي خرافي وأسطوري، فإن كثيراً من مدن ألف ليلة وليلة حقائق قائمة بذاتها، فلقد قامت هذه المدن منذ القديم، وعُرفت، ولا تزال معروفة حتى الآن كبغداد والبصرة والكوفة وخراسان ودمشق وحلب، وصنعاء والإسكندرية، وفاس ومكناس وغيرها، في حين أن مدناً أخرى ذكرتها الليالي كانت غاية في العمران المعماري الفانقة فناً وإبداعاً وتخطيطاً، لكننا إذا حاولنا أن نحدد معالمها على الخريطة الجغرافية الحديثة- بعد أن تشكل العالم الجغرافي تشكيلاً نهائياً من حيث معالمه وحدوده وبحاره، وعواصمه ودوله - فإننا لن نجد اسماً لهذه المدن، فإما أن تكون قد اضمحلت واندثرت نتيجة لعدم توافر الشروط الطبيعية التي تؤهل إلى استمرار هذه المدن، وقد يكون من هذه الشروط وجود الريف، واعتلال الهواء والترية، ووجود المراعي كما يرى الماوردي، ففي نظره أنه "إذا تكاملت هذه الشروط في إنشاء المصر استحكمت قواعد تأبيده، ولم يزل إلا بقضاء محتوم.." (١).

وإما أن تكون قد تغيرت أسماؤها بفعل المؤثرات الجغرافية والطبيعية التي تعرضت لها قارات العالم وفق تشكلاتها الجديدة، وإما أن تكون أصلاً مدناً تشكلت مورفولوجياً وجمالياً وفق رؤية السارد الجمالية، عبر عمليات التخيل والحلم، أو عبر المثاقفة الحضارية والفكرية، التي نشأت بين مدن ألف ليلة وليلة، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن شهرزاد امرأة فاقت زمانها ومكانها علماً ومعرفة وأدباً إذ اطلعت على ثقافات الشعوب وعاداتها وتاريخها وأشعارها، وعادات مدنها كما تقول الليالي: "وكان الوزير له بنتان رانعتا الحسن والجمال والبهاء، الكبيرة اسمها شهرزاد والصغيرة اسمها دنيازاد، وكانت الكبيرة قد قرأت الكتب والتواريخ وسير الملوك المتقدمين وأخبار الأمم الماضين" (٢).



١ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب: تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك. المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ص ٢١٠.

٢ ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ١٥/١.

ويبدو أن تعدد مستويات السرد والقص من جهة، وتعدد رؤى السارد من جهة أخرى قَدّمت سارداً متميزاً ومبدعاً، استطاع أن يشكل هذا العالم الغرابي من مدن بعيدة منسية في الصين والسند والهند، وواق الواق وغيرها، فتشكل المدن بهذه السحرية الغرائبية، وفق خرق لبنية الزمان وتاريخيته، وتحطيم لحدود المكان الممكن، أو المكان الواقعي، وإحلال مكان غائب وسحري عصي على التحديد والضبط بدلاً منه، كان عانداً بالدرجة الأولى إلى اطلاع الراوي على كثير من معارف عصره باعتباره عصرًا منفتحاً على الثقافة الفارسية والهندية واليونانية والسريانية والهلينية. وإما أن هذه المدن قد تكون تخربت وتهدمت بفعل صيرورة التاريخ نفسه، وحركات الاضطراب والفتن والثورات المعارضة والحروب، وتعرض هذه المدن لأعمال الهدم، وتأسيس مدن جديدة بدلاً منها، وإما أنها انتهت سياسياً بزوال سلطتها وقوة ملكها، لأن: "الأمصار التي تكون كراسي الملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها (وذلك) أن الدولة إذا اختلت وانتقضت فإن المصر الذي يكون كرسياً لسلطانها ينتقض عمرانها وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب"^(١).

ومن هذه المدن والجزر تلك التي كان يصل إليها السندباد البحري : مدينة القرد، ومدينة الملك المهرجان، ومدينة السلاطة ومدينة مرزرقان ومدينة شمعون، ومدينة الأبنوس، ومدن أخرى كجوهر تكني والطيرب وجزائر الكافور، ولبطة، وغيرها. فهذه المدن، ربما يكون السارد قد تخيلها وأضاف إليها مزيداً من السحر والخرافة، والغرائبية، التي من شأنها أن تشد القارئ والمستمع، وتسهم أيضاً في نمو القصة، داخل بنية المكان، وأمكنة أخرى قد تتلاقى مع مكان القصة الذي تحدث عنه هذا السارد. و"لقد وصل إلى قاص الليالي قصص عن الهند وفارس حاملاً الكثير من مميزات بينته الأولى، ولكن القاص لم ير الهند ولم ير فارس ولئن رأهما هو، فإن غيره من سامعيه لم يرها، ولئن رأهما هو فهو بعيد عن أن يلاحظ الفروق الجوهرية بين بينته وبينتهما"^(٢).

ويمكننا أن نقسم مدن ألف ليلة وليلة، بحسب معتقدات شعوبها على المستوى الديني، على الشكل الآتي:

١ - المدن الإسلامية. ٢ - المدن المسيحية. ٣ - المدن اليهودية. ٤ - مدن الكفار والمجوس وعبدة النار وأكلي لحوم البشر. ٥ - المدن السحرية المنسوجة من عالم الخيال، وهي مدن الجن وتقسم إلى قسمين:

أ - مدن الجن والعرافيت المؤمنين بالله وهم أتباع النبي سليمان، وهي مدن كثيرة جداً.

ب - مدن الجن الكفرة الخارجة عن طاعة النبي سليمان.

٦ - مدن ذات طابع سحري خاص، وهي المدن البحرية، وسكانها يمشون على الماء، وملوكها يسمون ملوك البحار، ولهم قدرات تفوق قدرات البشر العاديين^(٣). بالإضافة إلى إيمانهم بالله، مع ملاحظة أن جميع هذه المدن باختلاف تشكيلاتها الاجتماعية، وتوجهاتها المذهبية هي مدن موشاة بالسحر والأسطورة والغرابية، لما للأسطورة من أهمية في الأدب والفن، والقصة. لأنها: "هي قوة الإعلام الرئيسية التي تضيء على الشعائر مغزى النموذج الأصلي، وعلى النبوءة صفة النموذج الأصلي للفن القصصي. لذا فإن الأسطورة هي النموذج الأصلي"^(٤). وقلما نجد مدينة في ألف ليلة وليلة

١ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، "مقدمة ابن خلدون"، تحقيق د.علي عبد الواحد وافي، طبع لجنة البيان العربي، بيروت، ط ١، ١٩٦٠م، ٨٨١/٣.

٢ القلماوي، د.سهيير: ألف ليلة وليلة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، دون تاريخ، ص ٢٢٣-٢٢٤.

٣ للاطلاع على نماذج هذه المدن وعادات شعوبها، ينظر: ألف ليلة وليلة، المكتبة الشعبية للطباعة والنشر، بيروت، دون تاريخ، الجزء الثالث من ص ٢٩٩ إلى ص ٣٢٨.

٤ فراي، نورثروب: الماهية والخرافة، ترجمة هيفاء هاشم، مراجعة عبد الكريم ناصيف، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، ص ٢٦.

إلا ولها سحرها الخاصون، وأساطيرها الخاصة، ومنجموها وفلكيوها، الذين يستشعرون الخطر قبل قدومه، ونساؤها الخبيرات بجميع فنون المكاييد والحيل والخديعة، ورجالها الفانون أعمارهم في مجالس الشراب والطرب، وأجساد الجوّاري، والحروب الطاحنة لتعزيز بطشهم وسلطتهم بعيداً عن أية قوانين أو شرائع إنسانية أو أخلاقية. مدن ألف ليلة وليلة مدن واقعية عبر التاريخ منها فرضاً رؤيته وقسوته، وظلامه وضيائه في آن. ومدن وهمية شكلها راو متشعب الاتجاهات والثقافات، بل رواة من حضارات متعاقبة ومتجاوزة زمنياً وتاريخياً.

وسأحاول في هذه الدراسة التركيز على علاقة السلطة بالمواطن في مدن الليالي على المستويين الاجتماعي والطبقي، وبالتالي على مستوى الملكية، ودور هذه الملكية في اغتراب المواطن وإحساسه بالاستلاب والقطيعة بينه وبين مدينته، ودور السلطة في الليالي، في تهديم العلاقات البشرية الإنسانية، التي تحقق للمواطن توازناً وطمأنينة، وعلى بنية قصور السلطة، ودور المرأة في ترسيخ الحيلة والسحر في هذه القصور، باعتبار أن بنية القصر الداخلية تعكس وضعاً سياسياً وسوسيلوجياً وثقافياً تعيش فيه المدينة، معتمداً بالدرجة الأولى ما يفرزه النص الأدبي، والحكاية من أنظمة فكرية وعلاقات متناقضة تارة ومتداخلة ومعقدة ومنسجمة تارة أخرى، ومستفيداً أيضاً من بعض خلفيات المدينة الإسلامية كما تشير إليها الأدبيات التاريخية. وإذا كان من المتعارف عليه أن للقراءة نظامين: "قراءة تذهب رأساً إلى مفاصل القصة وتأخذ بعين الاعتبار امتداد النص وتجهل الأعياب اللغوية (...). أما القراءة الأخرى فلا تغفل شيئاً، بل تزن النص وتلتصق به، وتتهمك في عملها بجد وحماس إن صح القول، وتدرك في كل نقطة من النص انقطاعات الوصل التي تقطع اللغات لا القصة" (١). فإني سأكتفي بالقراءة الأولى معتمداً على امتداد النص الأدبي داخل البنية السوسيلوجية والثقافية التي تحكم مدن الليالي، لأن القراءة الثانية تناسب نصاً من مميزاته أنه "النص الحديث، النص- الحد الأقصى" (٢).

أما نصوص ألف ليلة وليلة فإن جمالياتها تكمن في أنها نصوص خارج الزمان والمكان لكنها من صلبه، إنها ماضي الماضي، وحاضر الماضي (٣)، والحاضر والمستقبل وما بعد المستقبل باعتبارها نصوصاً تحمل طاقة تخيلية قصوى. وإذا كانت القراءة الإيديولوجية للنصوص الأدبية كثيراً ما تعتمد مفاهيم مسبقة ذات أطر إيديولوجية، تجعل النص "خطاب أطروحة" قبل أن يكون خطاباً إبداعياً، وتعمد إلى قسر هامة النص، بدلاً من أن تضيء مكوناته، فإن ثمة نصوصاً في الليالي تفرز بشكل أو بآخر بعض سمات المنهج الإيديولوجي غير المرغوب فيه، وبالتالي يصعب التخلص نهائياً من إسقاطات "خطاب الأطروحة". وإن بدا على هذه القراءة بعض ملامح خطاب الأطروحة، فإنه ليس مقصوداً بذاته، بل في قدرته على إضاءة بعض جوانب الليالي العربية والفارسية والهندية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الإيديولوجيا تشكل "نسقاً مترابطاً من المقولات التي تفسر الواقع المعيش وتنطوي في الوقت نفسه على صياغة رؤية مستقبلية لما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع" (٤).

تحدد المدينة في ألف ليلة وليلة بفضانين سريين وحميمين، فضاء الرجال وفضاء النساء، مدينة الرجال ومدينة النساء، سلطة الرجال وسلطة النساء، ومن خلال بنية هذين الفضانين المكانيين تُقرّر سياقات فكرية وثقافية تؤدي بدورها إلى سياقات سلطوية أخرى. حضور سلطوي طاغ في جميع بنى الحياة السياسية والثقافية والفكرية والدينية، والمدينة غارقة ببؤسها، ومذبوحة من الشريان إلى الوريد داخل هذه الفضاءات السلطوية، إنها تهجع داخل شبكة عنكبوتية من العلاقات السلطوية، والشرائح الاجتماعية المتباينة طبقياً: الخليفة والملك والأمير والجند وسادة القوم، وسيدات القصور، يسنون

١ بارت، رولان: لذة النص، ترجمة فؤاد صفا، والحسين سبحان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٨م، ص ٢٠-٢١.

٢ م ن، ص ٢١.

٣ ماضي الماضي وحاضر الماضي، مصطلحات من استخدام ت-س- اليوت، في كتاباته النقدية.

٤ إبراهيم، د. سعد الدين: مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الخامس، ع ٤، سبتمبر ١٩٨٥م، ص ١٣.

القوانين ويشرعونها، ويسوسون بها الرعية، وعامة الناس، أي الطبقة الدنيا، ولما تكون الطبقة الدنيا في مدن الليالي فاعلة في تشكيل الأنماط الحياتية، بل إن النمط الحياتي والسلطوي هو نمط مهياً ومتشكلاً سابقاً. ومقابل طبقة السلطة نجد قطاعات عريضة من عمال وسقائين وحلاقين وبسطاء، ومسحوقين قلما يعرفون شيئاً عن عالم المدينة الداخلي المسحور، عالم شهريار وشهرزاد وقصور الحريم المزخرفة والمزينة بأجمل أنواع الزخارف وبقطيع الجواري. ومن خلال دراسة بنية قصور الحريم والجواري، سنكتشف جميع أنواع المؤامرات والدسائس والمكايد والفضائح، يسهم في ذلك هذا التخطيط الهندسي المعماري والفني ذو المواصفات السرية والفضاءات المنفتحة على سراديب ودهاليز وستائر ومصاطب وزوايا، والمفتوحة في آن على فضاء خارجي شاسع، وذلك بوساطة باب سري، أو نافذة سرية تربط المرأة بعالم المدينة الخارجي، وبمدن الرجال وعالمهم وسراديبهم، وداخل هذه السراديب والممرات الضيقة تتم عملية التجسس وتحاك المؤامرات والدسائس ضد سلطة الرجال وضد أعرافهم وتقاليدهم وقوانينهم.

ومن داخل سراديب قصور مدن ألف ليلة وليلة تُقام الصلات والعلاقات السرية والمشبوهة بين رجال السلطة وبين الجواري، وبين فضاء الحريم بشكل عام، لأن بنية السلطة باعتبارها تعتمد التملك شعاراً وروية، فإنها تعتمد إلى عزل النساء داخل قصورهن، ومراقبتهن مراقبة حذرة، ووضع الجواسيس عليهن من الخدم. أما السرداب بالنسبة لبعض رجال القصر، فإنه يشكل بنية جمالية، وفضاء نفسياً ممتعاً، لأنه وسيلة لتسلل الأمير أو قائد الجند، أو الرجال المهمين إلى القصر، وإلى حجرات الجواري بعيداً عن عيون زوجاتهم من الحرائر، وعن عيون السلطان الرجل الأول في القصر، وعموماً فإن تخطيط القصر الهندسي يضمن للأمرء المهمين غرفاً سرية تفتح بشكل سري على عالم الجواري عن طريق ممرات سرية، وبوابات ضيقة تغطيها الستائر الكثيفة التي تمنع النور، وكثيراً ما تستطيع الجارية الحظية عند السلطان أن تُدخل عشيقها. حتى ولو كان من خارج سلطة رجال القصر. من هذه الممرات ليقتضي ليلة عندها، وعندما تستشعر خطراً فإنها تخفيه في السراديب السرية كما فعلت إحدى جواري الخليفة الرشيد- شمس النهار- مع عشيقها علي بن بكار، وصاحبه- أبي الحسين علي بن ظاهر- إذ أدخلتهما سراً " في مقصورة وأجلستهما وإذا بالمواند وضعت قدامهما فأكلا وغسلا أيديهما ثم أحضرت لهما الشراب فشربا ثم أمرتهما بالقيام فقاما معها وأدخلتهما مقصورة أخرى مركبة على أربعة أعمدة وهي مفروشة بأفخر الفراش مزينة بأحسن الزينة"(١).

وفجأة يصل الخليفة أمير المؤمنين الرشيد، فترتعد جارية شمس النهار لمنظر عفيف ومسرور سياف النقمة، وبخبرة المرأة المجربة لدهاليز القصر وخباياه، العارفة كيف تتعامل مع رجال سلطة القصر، تُطمئن شمس النهار ضيوفها، يقول الراوي: "فضحكت شمس النهار وقالت لا تخافوا ثم قالت ردي عليهم الجواب بقدر ما نتحول من هذا المكان ثم أنها أمرت بغلاق باب القبة وإرخاء الستور على أبوابها وهم فيها وأغلقت باب القاعة ثم خرجت إلى البستان وجلست على سريرها"(٢). تنصرف شمس النهار إلى استقبال الخليفة ومنادمته، بينما تنهمك الجارية في إخراج علي بن بكار من دهاليز القصر يساعدها أبو الحسن- صديقه-: "ونزلا به من على الروشن ومشيا قليلاً ثم فتحت الجارية باباً صغيراً وأخرجت أبا الحسن هو و"علي بن بكار" على مصطبة ثم صفقت الجارية بيدها فجاء زورق فيه إنسان يجذف فاطلعتهما الجارية في الزورق"(٣).

ونلاحظ أن فضاء القصر وبنية حجرات الجواري، وزخرفتها وتنميقها بشكل جمالي ومدهش، تساعد المرأة الحظية على ممارسة سلطتها وسيادتها على من دونها من العبيد والجواري الذين لا يملكون مثل هذه الحجرات- المقصورات-

١ ألف وليلة، طبعة: المكتبة الشعبية، ٦٠/٢.

٢ م ن، ص ٦٣.

٣ م ن، ص ٦٥.

بالإضافة إلى أن هذه الحظية تستمد سلطتها من سلطة رجل قوي يتموضع بشكل مهم في نسق السلطة، وعندما تعي الجواري والعبيد أن السيدة الحظية لها علاقة متينة بالسلطة فإنهم يخضعون لها ويخشونها، ولا يتم التخلص من سطوتها إلا بمكيدة تطيح بها من قبل رجل مهم ذي سلطة نافذة تفوق سلطة الرجل- صاحب العلاقة معها- فيغضب الرجل الأول وينفي الثاني وجاريته، أو يقتل الثاني ويمتلك جاريته، كما في حكاية "علاء الدين أبو الشامات" (١). صراع سلطوي مرير حاق، هدفه الأول المال والجواري والبساتين والمتاجر والأسواق، وتبقى الرعية تعايش مدناً مستلبة يعربد فيها القتل والفقر والجوع وذلل الحاجة. وتزداد سلطة نساء ألف ليلة وليلة في قصورهن بقدرتهن على إسعاد الأمراء وتغيبهم عن بنيات الزمان والمكان، وعن المدينة وهمومها ومآسيها.

إن جسد الجارية هو المعادل الموضوعي لهموم السلطة وخيباتها، وقطيعتها الإنسانية بينها وبين أفراد شعبها. ومن داخل مخبأ الجارية الضيق بجدرائه، الفسيح بطنافسه وزخارفه، وجماليات ألوانه وتخطيطها تخطيطاً زخرفياً جمالياً ومثيراً، تستمد هذه الجارية سلطتها الطاغية على عليا القوم. ومن هنا سنلاحظ أن الجارية ستعتمد ظاهرياً الوقار والحشمة والتعفف، والكبرياء الزائف، والرصانة والاستعلاء على العبيد والجواري دونها، وفرض علاقات تفتقر إلى أي شرط إنساني وأخلاقي بينها وبين عبيدها وجواريها، لأنها تعتقد أن هذه العلاقة السلطوية المشوهة هي التي تحميها من مكائد العبيد وحسد الجواري فتعتمد ما أمكنها إلى تقليص العلاقة وإلغاء الحوار بينها وبين عبيدها وجواريها، إلا ما كان منه توجيه أمر أو سلطة أو توبيخ على تقصير أو ما شابه ذلك.

إن محاولة السلطة في مدن ألف ليلة وليلة لتعطيل العلاقات الإنسانية في جوهرها الأخلاقي خلق ضمائر مهزومة قابلة لأن تُسرى وتباع لمن يدفع أكثر، وفرض مستويات طبقية متباينة وفقراً وبطالة، وتشويهاً داخل البنية الثقافية والسوسيولوجية لهذه المدن، بالإضافة إلى سلطة المال ودورها في تخريب القيم والنفوس، وتعطيل قوانين الدولة وأنظمتها. وإن بدا الخليفة قوياً ومتماسكاً باعتباره رمزاً للسلطين الدينية والسياسية، ترفده في ذلك أملاكه وقصوره، وجلالته وموقعه المالي المتميز، فهو أغنى رجال المملكة- باستثناءات طفيفة جداً- على مستوى القطاعات التجارية والزراعية والاقتصادية، فإن وضعه هذا لم يحقق له الطمأنينة والانسجام مع نفسه ومع مدينته وشعبه، فابتعد عن الشعب وسلمه لمجموعة من القادة والأمراء العسكريين القساة والظلمة يعيشون فيه فساداً وترفاً، وسرقة للأموال والنساء التي يقدمون بعضها هبات ورشاوى للخليفة، أو لمن هو أكثر سلطة منهم (٢). ومن هنا نفهم سر حفلات السكر والعريضة التي يقيمها الملوك والأمراء من المساء إلى الصباح، حتى إن مجالس هؤلاء كانت تضم منات الجواري والعبيد الذين غطت طاقاتهم، وانحصرت في هزّ الأجساد، وتقديم كؤوس الشراب للأمير ولندمانه، ونفهم أيضاً سر ظهور طبقة مسحوقة باطلة جانعة لجأت إلى قوت يومها بالفتوة والسرقة وقطع الطرق، والقتل، ولجوء طبقة أخرى مالت إلى الزهد والتقشف والهروب من هذا الفساد المستشري، ولجوء طبقة أخرى إلى امتنان التسول وإتقان فنونه، وظهور طبقة الجواري العابثات في فنون اللذة وطرقها تمهيداً لكسب المال، والنفوذ إلى قصور السلطة.

لقد كانت العلاقة القائمة بين سلطة شهريار ومدينته علاقة نفور وحقد على شعبه ومدينته، دمرت بنيان روحه إنسانياً، و لقد صارت المدينة خيانة وظلاماً وكابوساً عندما شاهد زوجته وجواريه وعبيده في حفل عريبي صاخب تُطاح فيه كل قوانين السلطة وشرائعها ومحرماتها، وهو المالك والأمر والناهي، ولا يملك سلطة على أعز المقربين منه- زوجته-، فما كان منه إلا أن أطاح بها. صار فضاء القصر الحميمي بالنسبة إليه فضاءً قاتماً، ولأول مرة يكتشف ما يجري في دهاليز قصره وممراته، وفسحاته. ومن فسحة الرؤية ظل مدهوشاً أمام البنيات الجديدة التي اكتشفت له. لم يعد هناك فضاء محرم

١ - المزيد من الاطلاع، تراجع الحكاية في الجزء الثاني من ص ١٨١ إلى ص ٢٢١.

٢ - ينظر التفاصيل في الجزء الثاني، ص ١٦٥.

بين عبيد القصر ونسائه، كل ما كان يجري في السراييب والدهاليز صار مكشوفاً، وارتفعت الستائر، وانفتحت الأبواب السرية، فبدت الحقيقة فاجعة، وازداد الشرخ بين سلطته المنتهكة ومدينته، فصارت المدينة بؤرة مظلمة بفضاءاتها وقصورها ونسائها ورجالها، فما كان منه إلا أن بدأ ينتقم منها ببشاعة مريرة، وأبشع ما كان هذا التدمير كان بإحلال الرعب السلطوي فيها، واختياره كل ليلة فتاة عذراء، ثم اجتثاته لروحها في الليلة نفسها. وبالرغم من فضاء القصر المحدود (١) في الليالي، إلا أنه يمكن أن يتسع ليصبح فضاء جميع الأمكنة السياسية والاجتماعية في مدن الليالي، ومن أهم مميزات هذا الفضاء أنه فضاء للنساء والجواري، وتمارس فيه المرأة سلطة لا حدود لها على الأمير أو الملك من خلال جسدها، وكثيراً ما يورق هذا الجسد الأمير فيصبح بالزمان والتاريخ والمملكة: أن هاتوا لي الجارية الفلانية وإلا هدمت المدينة على رؤوسكم. للجارية هذا التأثير السحري العجيب على قرارات الملك، فكثيراً ما تكون سبباً لطمأنينة المدينة كشهرزاد، التي أضفت حالة سلام مؤقتة على مدينتها وعلى نسائها، وكثيراً ما تكون سبباً لشقائها وبلانها، وبسلطتها ومكيدتها يتم عزل الأمراء أو تقربهم، وقتل الأبناء أو نفيهم. (٢)

في فضاء القصر ثمة سلطتان: للملوك والسلاطين والأمراء والنساء والجواري والسراييب. فسلطة النساء والجواري "مستقلة عن وظيفة السلطة" سلطة الملك "الكبيرة ومتداخلة فيها، مستقلة داخل "حيز الحريم" لا يتدخل بها أحد من الخارج ومتداخلة مع السلطة التي هي خارج "حيز الحريم" ما دام "حيز الحريم" محجوباً مغلقاً، وليس مكشوفاً أمام عين السلطة "سلطة الملك أو الخليفة". إن المسافة كانت كبيرة فيما بين الحريم والرجال في القصر من حيث الدور الذي كان يؤديه كل فريق. "حيز الحريم" مقصود دائماً من قبل الرجال، من هذا المنطلق، فإنه لا ينتقل من مكانه في القصة، كون "الحريم" لا يأتي بل يُوتى إليهن، ولا يقصدن أحداً، بل يقصدن الآخرين، هنا يمارس "حيز الحريم" سلطته وحيث دوره الفعلي يبقى في "الكواليس"، وسلطته هي وراء الستائر، ولا سلطة له في "المكان المكشوف". ونرى في المقابل أن قصر الخليفة مثلاً له بعد أكبر من كونه بعداً لقطار كبيرة لها شكلها الجمالي والزخرفي. وفي ديوانه ليس له فقط هيبة "السلطة الذكورية" و"حضرة السلطان"، بل إنه يتعدى ذلك ليصل "مقصورة الحريم"، أو "حيز الحريم"، ومن فعالية سلطة "حيز الحريم" عندما يكون محجوباً، أن للزينة والعطور والملابس الحريرية المزركشة، بعداً آخر غير مرئي في القصة، لأن رائحة أجساد الجواري تبتلع روائح عطورهن وتخترق الأتواب والجدران. تمزق الحجب، فتصل أنف الخليفة وأنوف أهل الديوان" (٣).

وبالرغم من سلطة الرجال في الليالي وقوة بطشها، فإن الجارية كثيراً ما كانت تخرج من فضاء القصر لتلتقي بعشاق لها خارج أسواره، في سوق التجار، وفيلاتهم الفخمة، وفي البساتين البعيدة عن المدينة المركز. وكثيراً ما كانت تجلب عشاقها إلى مقصورتها داخل القصر نفسه عن طريق الممرات السرية والسراييب التي ذكرناها سابقاً. إن وظيفة السراييب السرية التي تربط القصر بالمدينة جد مهمة، فتخطيطها الهندسي يقوم وفق وظيفة اجتماعية ونفسية حددتها بنية المدينة نفسها، وعلاقاتها وقيمتها. ويبدو أن السرداب الضيق يعطي سكان القصر طمأنينة وأماناً باعتباره غير مكشوف تماماً. ويبقى فضاء القصر أو المسكن في بنيته "على علاقة مستمرة مع واقعه الاجتماعي والسياسي

١ نستعير مصطلح الفضاء من لغة النقد الروائي، لأن ألف ليلة وليلة يمكن أن تشكل عالماً روائياً خصباً، وعميق الدلالات.
٢ ينظر المكيدة التي أعدتها الملكتان بدور وحياة النفوس، لكل من ولدي زوجها الملك قمر الزمان، الأميرين: الأمجد والأسعد، في المجلد الثاني، من ص ١٤٢ إلى ص ١٤٥.
٣ مصطفى، دمشق: "المسرح وحيز الحريم في ألف ليلة وليلة"، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت/ الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، العددان ١٧/١٨، أيلول (سبتمبر)/كانون الأول (ديسمبر)، ١٩٨٠م، ص ٢١٧.

والجغرافي" (١). ونرى أن ثمة علاقة واضحة تربط بين هندسة المدينة وتخطيطها وترتيب قصورها، وبين النظم الاجتماعية السائدة في هذه المدينة.

المصادر والمراجع

المصادر القديمة

١. ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، المجلد الأول والثاني والثالث.
٢. ألف ليلة وليلة، طبعة: المكتبة الشعبية، بيروت، لبنان، دون تاريخ، المجلد الثاني.
٣. ابن خلدون: كتاب العبر، "مقدمة ابن خلدون"، تحقيق د.علي عبد الواحد وافي، طبع لجنة البيان العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، الجزء الثالث.
٤. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب: تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك. المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، دون تاريخ.

الكتب العربية

١. القلماوي، د.سهير: ألف ليلة وليلة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، دون تاريخ.

الكتب الأجنبية المترجمة

١. بارت، رولان: لذة النص، ترجمة فؤاد صفا، والحسين سبحان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٨م.
٢. فراي، نورثروب: الماهية والخرافة، ترجمة هيفاء هاشم، مراجعة عبد الكريم ناصيف، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

المجلات والدوريات

١. إبراهيم، د.سعد الدين: مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الخامس، العدد الرابع، سبتمبر ١٩٨٥م.
٢. فيربليو، بول: "حول أزمة المجال"، مجلة العرب والفكر العالمي، ترجمة د.رجاء مكي، مركز الإنماء القومي، بيروت/ باريس، العدد الثاني، ربيع ١٩٨٨م.
٣. مصطفى، د.مشهور: "المسرح وحيز الحريم في ألف ليلة وليلة"، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت/ الهيئة القومية، طرابلس (ليبيا)، العددان ١٧/١٨، أيلول (سبتمبر)/ كانون الأول (ديسمبر)، ١٩٨٠م.

١ فيربليو، بول: "حول أزمة المجال"، مجلة العرب والفكر العالمي، ترجمة د.رجاء مكي، مركز الإنماء القومي، بيروت/ باريس، العدد الثاني، ربيع ١٩٨٨م، ص ١١٥.